مؤلّفات المركز، 2022، ص. 133-154

المضامين الإنسانية في أفكار ورسائل الأمير الروحانية (فتنة دمشق 1860)

ماهر جبار محمد الخليلي [1]

مقدّمة

المجاهد الإنسان الأمير عبد القادر الجزائري، الرجل العالم، والعالم الزاهد، الفارس المغوار، والشاعر الرقيق، المفكر الثاقب، والحكيم العارف، له صولات وجولات في مقاومة الاستعمار الفرنسي، وله مؤلفات وكتابات خلدته عالما كبيرا في الفكر والعلم والدين، وله قصائد لامعات في المدح والتصوف وغيرها.

فصفات الأمير كثيرة ومتعددة، والكتابات عنه لم تتوقف لا في حياته ولا بعد مماته، وقد كتب عنه الكثير، إذ لا تخلو زاوية من زوايا صفاته وحياته إلا وكتب عنها، وفي بعض المصادر، غلبتْ الصفةُ السياسية عند الأمير عبد القادر الجزائري، وفي مصادر أخرى غلبت الصفة الصوفية والزهد.

نحاول في هذه الورقة أن نستفيد من مواقف الأمير الإنسانية التي ميزت شخصيته في كل حياته، من خلال طريقة تعامله مع الأصدقاء أو الخصوم، ويمكن القول إن المضمون الإنساني يتجلى واضحا في الفتنة الكبيرة التي حدثت في دمشق 1860م، ومواقفه مع المسيحيين والقناصل الأوربيين بما فيهم الرهبان والراهبات، عندما استطاع حمايتهم من المسلمين الغاضبين الهائجين، إذ وصل عددهم إلى أكثر من خمسة عشر ألفا، بما أثار إعجاب دول العالم فضلا عن المسلمين، ليجسد بذلك حقيقة المعاني السامية في الدين الإسلامي فعلا لا قولا.

[1] Faculté Universitaire Imam Al-Kadhim, Irak.

تناولت الدراسة مبحثين، اختص الأول بذكر جانب من تاريخ الفتنة الكبيرة التي حدثت في لبنان وسوريا عام 1860 بين المسيحيين والمسلمين من ناحية الأسباب والأحداث، ودور الأمير في تلك الأيام ومواقفه العملية، ودفاعه الفكري النابع من صميم الدين الاسلامي، فيما تناول الثاني قراءة جديدة لبعض رسائل الأمير المهمة التي تعلقت بالفتنة، محاولين الاستفادة الفكرية لحقيقة المضامين الإنسانية المستوحاة من تلك الرسائل.

المبحث الأول : فتنة عام 1860 الأسباب والأحداث

إنّ تدهور أوضاع بلاد الشام وعدم قدرة الدولة العثمانية على حل المسائل العالقة، وأهمها أوضاع المسيحيين في السلطنة، أعطى فرصة تاريخية للدول الأوربية بالتدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية، لاسيما جبل لبنان، إذ برزت الوساطات الأوربية من خلال قناصلهم في بيروت ودمشق وسفرائهم في الأستانة. وأمام هذا الضغط الهائل كان على الباب العالي أن يتفاوض معهم لإيجاد الحلول وإعادة تنظيم المنطقة.

واصل الأوربيون ضغوطهم على الدولة العثمانية والتدخل في الشؤون الداخلية، فالبريطانيون استمالوا الدروز بعد صد الموارنة لهم وطردهم الإرساليات الإنجيلية، وبدأوا بدعم بعض الزعماء الدروز الذين تقبلوا في مناطقهم هذه الإرساليات، والباب العالي لا يخفى عليه نوايا البريطانيين، وهناك رواية قالها وزير عثماني لصديق أوربي ((إن مساندة إنكلترا لنا ممتازة غير أننا نستند إلى عصا من الشّوك)) (طربين، 1968م)، والفرنسيون تدخلوا لتنفيذ سياستهم في لبنان، واستمروا في دعم الموارنة بشكل واسع ماليا واقتصاديا وثقافيا وعسكريا، أما الروس فقد كان همهم الحصول على موطىء قدم في لبنان من خلال رعايتهم للمسيح الأرثوذكس، فضلا عن أن النمسا نافست فرنسا في دعم المسيح الكاثوليك واستغلت كل فرصة لتحقيق ذلك (بازيلي، 1988م).

أحداث لبنان قبل عام 1860

في 18 شباط 1856 أعلن السلطان عبد المجيد بموجب الخط الهمايوني[1] إلغاء وضع

[1] الخط الهمايونى : في شباط 1856 وبعد أن ساعدت بريطانيا وفرنسا السلطان عبد المجيد في حربه ضد روسيا. قرر عمل مجموعة إصلاحات سميت بالخط الهمايونى. أهم ما جاء فيها : (المساواة بين كل مواطني الدولة العثمانية في كل الحقوق والواجبات، ينتخب (رؤساء) الكنائس من كل الملل وتكون فترة انتخابهم حتى مماتهم، السلطان شخصيا وفقط له الحق في ترخيص بناء وترميم الكنائس والمقابر الخاصة لغير المسلمين، إعفاء الكنائس من الضرائب أو المصروفات، عدم إجبار أي شخص على ترك دينه، يكون حق

أهل الذمة، وإطلاق حرية العبادة وتحقيق المساواة المدنية والسياسية لكل أعضاء مجتمعات السلطنة، معتبرا الجميع رعايا عثمانيين، وأفرادا متساويين كمواطنيين (إتيين، 1997م).

انتقد الأمير عبد القادر الجزائري بمرارة بعض هذه الإصلاحات لأنها تمس بالحقوق الإسلامية، ولكنه كان حذرا وله نظرة خاصة للسلطة العثمانية، والتي لا تخلو من طابع انتقادي أو استياء لمواقفها في الثورة الجزائرية، وبالمقابل كان هناك حذر وتوجس من العثمانيين تجاه المغاربة بشكل عام ومن الأمير بشكل خاص (إتيين، 1997م).

في عام 1854 ظهر على المسرح السياسي اللبناني صراع بين أسرتي أبي اللمع وأسرة آل خازن الدرزية، وكان البطريرك بولس مسعد[2] يمثل قمة الهرم الديني عند الموارنة، وترتب على تعيين بشير أحمد أبو اللمع قائم مقام في 13 آب 1853 بداية لصراع جديد مع الدروز في جبل كسروان (طربين، 1968م).

واجه القائم مقام الماروني الجديد معارضة قوية من أسرة الخازن الدرزية الذين عاشوا شبه مستقلين في كسروان، وكانت أسرتهم أقوى نفوذا وأوفر ثروة وجاها وشهرة من أسرة أبي اللمع، لذلك جابه الأمير الجديد عداوة رجال الدين المارونيين أيضا، الذين اعتبروا الأمير بشير مولودا درزيا وليس له إخلاص للحياة الدينية المارونية (سلمان نوار، 1978م).

ومن ناحية أخرى نشب نزاع بين أتباع القائم مقام الأمير بشير أحمد، الذين رفعوا شعار الأحمديين، وبين أتباع الأمير بشير عساف الذين أطلق عليهم بالعسافيين، وقد وجد العساف المساندة من القنصلية الإنكليزية، في حين كان القائم مقام يلقى المساندة من الباب العالي ومن القنصلية الفرنسية (سلمان نوار، 1978م).

التعيين في مناصب الدولة المدنية والعسكرية للكفاءة بدون تمييز في الدين، إلزام كل مواطني الدولة بالخدمة العسكرية، تكون الدعاوى القضائية بين المسيحين والمسلمين في دواوين (محاكم) خاصة يرأسها قضاة من الطرفين). للمزيد ينظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى (1982م)، **في أصول التاريخ العثماني**. (ط. 1)، بيروت : دار الشروق، ص. 40.

[2] بولس مسعد : ولد عام 1806 في بلدة عشقوت التابعة لقضاء كسروان، ثم انتقل إلى روما وأكمل دراساته اللاهوتية في المدارس المارونية في روما، عاد إلى لبنان 1826 وأصبح من أبرز الشخصيات اللبنانية منذ وقت مبكر، أصبح نائبا للبطريرك يوسف الخازن الذي توفي عام 1854 فأصبح مسعد بطريركا للطائفة المارونية، وتم تثبيته في السنة التالية، دخل في نزاع مع السلطات القائمة في لبنان وكان متحديا وجريئا، للمزيد ينظر : خليفة عصام، (1985م). **أبحاث من تاريخ لبنان المعاصر**. (ط. 1). دار الجيل : بيروت، صص. 13–57.

اضطربت أحوال البلاد خلال عامي 1856 -1857 بهذا النزاع العائلي من جهة، والمذهبي والديني من جهة أخرى، إذ دب الضعف والخراب في جميع أنحاء بلاد الشام.

كانت التقارير للمراكز الفرنسية من دمشق وبيروت تركز خلال سنوات 1856-1860 على مشكلة الأقليات وتحركات القناصل الروس والإنكليز الذين أدوا دورا فعالا في الشكاوي ضد العثمانيين ، وبالتالي زعزعة مركز القائم مقام المسيحي (إتيين، 1997م).

إنّ السياسة الأجنبية ليست بمعزل عن هذه الأحداث، فالنزاع البريطاني الفرنسي القائم على المصالح في بلاد الشام لاسيما في جبل لبنان، أخذ بالتنامي لتكون النزاعات بالنيابة وبين الأطراف المتنازعة، وحسب مساندة كل طرف من إحدى الدولتين، ولايخفى في هذا المجال الدور العثماني الذي اعتمد على سياسة التحريف وبث الفتن، لغرض إضعاف الأطراف، ومحاولة إبقاء الدور الأكبر للسلطة العثمانية دون أن تكون لديها القدرة على تحقيق ذلك.

الفتنة الكبيرة عام 1860 (بيروت ودمشق)

بدأت الفتنة في شهر نيسان من عام 1860 بشجار بين الصبيان الموارنة والدروزيين، وسرعان ما توسعت لتمتد إلى جميع المدن (حتي، 1972م)، إذ شعر الدروز بأن الموارنة يستهدفونهم في مناطقهم كونهم أقلية في ظل مناطق الموارنة، وأن تقارب الآخرين مع فرنسا أخذ بعداً سياسياً واقتصادياً كبيراً، ولذلك فهناك هواجس لها مبرراتها، وبالمقابل شعر الموارنة القاطنون في المناطق الدرزية أنهم في خطر شديد ، وخلال أسابيع قليلة أحرقت أكثر من ستين قرية من قرى المتن والشوف، واستمرت الثورة لتطال مدن دير القمر وراشيا وزحلة (صليبي، 1972م).

كان مصير دير القمر قتل 2600 نسمة، وفي جزّين وجوارها قُتل 1500 نسمة، وفي حاصبيا قُتل من الروم الأرثوذكس 1000 نسمة، وفي راشيا هلك 800 نسمة، وزحلة لم يَنجُ بيتٌ واحد فيها من الحريق. وقُتل في صيدا نحواً من300 نسمة. وبلغ عدد الضحايا أكثر من 12000 قتيلاً، ما عدا الخسائر الفادحة في الأموال والممتلكات[3].

[3] للمزيد عن تلك المجازر ينظر : البيطار عبد الرزاق، **حلية البشر في تاريخ أعيان القرن الثالث عشر**. (د. ت). (ج. 1)، دمشق، ص. 60 وما بعدها ؛ **استشهاد الاخوة المسابكيون الثلاث**. موقع المسابكيين الالكتروني : Consuté le : http://beatimassabki.com/ar/le-martyre.html

طارت شرارة الفتنة من لبنان، فأشعلت نارها في دمشق، والتي كانت في غليان من جرّاء سياسة الدولة العثمانية تجاه أبناء هذه المدينة لاسيما من المسيحيين، وقد شجّع على الثورة ضدّ المسيحيّن في دمشق عدمُ مُعاقبة المجرمين في لبنان، وتواطؤ الموظّفين الأتراك مع القتلة. فأُحرق الحيّ المسيحيّ، وبلغ مجموع القتلى في العاصمة السوريّة 11000 قتيلا[4].

وفي هذه الأحوال والأهوال اجتمع قناصل الدول الأوربية بدمشق واعترضوا على الوالي أحمد باشا لعدم اكتراثه لما يجري أمامه، فماطلهم بالجواب ولم يحرك ساكنا، وفي أيام الفتنة اجتمع الأمير عبد القادر بالوالي مع وجود أعضاء مجلس الشورى وطالبهم بالمساعدة على إطفاء شرارة الثوار، وبين لهم براهين مدعومة بآيات قرآنية وأحاديث نبوية في ضرورة محاربة المفسدين والمتطرفين والمعتدين (مخائيل مشاقة، 1908م).

موقف الأمير عبد القادر أثناء الفتنة

كانت الأنباء تتوارد عن قرب حدوث فتنة في دمشق قادمة شرارتها من لبنان، فجمع الأمير بعض العلماء والوجهاء والأعيان من أهالي دمشق والمهاجرين المغاربة وخاطبهم قائلا : "إن الأديان وفي مقدمتها الدين الاسلامي أجل وأقدس من أن تكون خنجر جهالة، أو معول طيش، أو صرخات نذالة تدوي بها أفواه الحثالة من القوم. أحذركم أن تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيبا، أو أن يكون له إلى نفوسكم سبيلا" (اباظة، 1994م).

في هذا الخطاب تشعر بالنبرة الحماسية العالية عند الأمير، المنتفضة ضد الجهل والتطرف والتعصب الأعمى، ونوعية الكلمات مختارة بتمعن وحسن صياغة، تتعلق بالخطاب العقلي ومستوى الأشخاص المخاطبين الذين يعدون من علية القوم، ولكنهم وفق تصوّر الأمير تسافلوا وتدنوا في مستوى تفكيرهم مع الحثالة والأنذال والطائشين، وواكبوا تصرفاتهم غير المسؤولة وغير المطابقة لأحكام الشريعة المحمدية محذرا إياهم من وساوس الشيطان الذي يتحكم بالعقول والعواطف، ويجر الإنسان إلى مواقع الرذيلة والدمار والخراب، والنفوس البائسة.

كان الأمير يحاول درء الفتنة بالخطاب والتواصل مع الأعيان والوجهاء، بل كان لا يترك فرصة إلا وكان يدافع عن مبادئ السلام وعدم الاعتداء على النصارى وأهل الذمة، وقد اجتمع مع الوالي مرات عديدة، يؤنبه ويحثه على السكينة والركون الى السلام وترك

[4] استشهاد الاخوة المسابكيون الثلاث. المصدر السابق.

النصارى وشأنهم، وبين للجميع العواقب الوخيمة التي تترتب على إشعال الفتنة، وبذل قصارى جهده في إظهار عدم جواز قتل المسيحيين شرعا ودينا (مشاقة، 1908م).

ومع تحذير الأمير انطلقت الفتنة كما أسلفنا يوم الاثنين 20 ذي الحجة 1276هـ الموافق 9 تموز 1860م، وبقي الأمير أربعة عشر يوما متوالية لم يفتر فيها لحظة عن نصرة المظلومين وإنقاذهم من القتل، وأشرف على تطبيب الجرحى، وقام على تعزية الثكالى والأرامل واليتامى، وكان يقضي أكثر الليالي ساهرا وبندقيته في يده حرصا على من حماهم من الناس (اباظة، 1994م).

بلغ عدد الذين أنقذهم الأمير من الموت والقتل والدمار والعذاب نحو خمسة عشر ألف شخص من القناصل وأعيان النصارى والرهبان والراهبات، ولما ضاقت بهم داره بعث بقسم منهم الى قلعة المدينة، كما احتمى بحي السويقة وبخان المغاربة نصارى الميدان، وكان نتيجة ذلك مقتل عدد من المغاربة هناك، كان بينهم فضلاء رافقوا الأمير في جهاده وهاجروا معه من الجزائر (اباظة، 1994م).

لم يزل الأمير يعاني من هذه الفتنة إلى أن حضر إلى دمشق فؤاد باشا[5] وزير الخارجية العثماني، وأجرى فيها الأحكام العرفية فقبض على زمام الأمور، إذ أدرك أن الأوضاع متأزمة، وأن الفرنسيين والأوربيين على الأبواب، بمعنى أن أيّ تأخير في الإجراءات قد يعرض الدولة إلى كوارث جديدة لا طاقة لتحملها في ظرفها الصعب، فلابد من تحرك سياسي وعسكري سريع لإعادة النظام، وقد اتخذ إجراءات صارمة تجاه من شارك في المذابح ضد النصارى في دمشق (اباظة، 1994م).

شكل فؤاد باشا محكمة عسكرية وأعلن الأحكام العرفية، وقسم الجنايات والتهم إلى ثلاثة أقسام (سالب، ومهيج، وقاتل)، وحكم على مئة وأحد عشر ضابطا وجنديا عثمانيا بالموت رميا بالرصاص، وعلق خمسين آخرين على أعمدة المشانق بما فيهم والي دمشق المشير أحمد باشا، واعتقل أكابر أعيان دمشق كالمفتي وكبار الشيوخ المتهمين في ضلوعهم بتلك الأحداث من جهة أخرى، أمر فؤاد باشا بجمع المسلوبات من سكان دمشق وتسليمها إلى مأمورين من قبله، وأصدر أوامره بتفتيش بيوت المسلمين مهددا بالعقاب الصارم إذا

[5] باشا، فؤاد (1815 –1869) ولد في إستانبول وأصبح وزيرا للخارجية لأول مرة في عام 1852 بعد أن تقلد عدة مهام ومناصب، كان له دور كبير في فترة التنظيمات ووصل من المراتب العليا حتى الصدارة العظمى. للمزيد ينظر: *Encyclopaedia of Islam*: 2, pp. 934-936.

وجد شيئا من متاع النصارى، فألقى هذا التهديد الرعب في قلوب المسلمين الذين أخذوا يطرحون ما عندهم على الطرقات، وكان اليهود يلتقطون هذه الأشياء ويشترون أشياء ثمينة بأسعار تافهة، في حين لم يتجاسر نصراني على الخروج من بيته (مشاقة، 1908م، ص. 188 ؛ صليبي، 1972م، ص. 144).

أرسلت فرنسا حملة عسكرية بقيادة الجنرال بوفور دي هوتبول Beaufort d'hautpoul وانتشرت من تموز 1860 إلى حزيران 1861 تحت عنوان الدوافع الإنسانية، كما بعثت بريطانيا وروسيا بعض المراكب الحربية منتظرين ما سيفعله وزير الخارجية فؤاد باشا، وفي أثناء ذلك حصل خلاف بين الأخير والجنرال الفرنسي، فبعث الجنرال رسولا إلى الأمير عبد القادر يخبره أنه قرر ضرب دمشق من جبال الصالحية، ونصحه بالخروج والنجاة بأهله (مشاقة، 1908م).

لمّا بلغ الأمير أن قائد الحملة الفرنسية الجنرال بوفور يريد قصف دمشق من الصالحيّة، تمهيدًا لدخولها، بعث رسالة الى الجنرال بوفور يطلب منه أن يوافيه في البقاع. وتوجّه الأمير ليلاً ومعه بعض أتباعه إلى معسكر الجيش الفرنسي واجتمع بالجنرال وأظهرَ له سوء عاقبة ما اعتمد عليه، فأصرَّ الجنرال على قصف دمشق ودخولها ، فهدَّدهُ الأمير وقال له "إذا قصفتم دمشق أو حاولتم دخولها فإن العهود التي بيني وبينكم تصبح لاغية،

وسأكون أوّل المدافعين والمقاومين لأي حملة فرنسية تهاجم البلاد، وسأعود للجزائر وأباشر الجهاد هناك من جديد" (محمد باش ابن الأمير عبد القادر الجزائري الحسني، 1903م، ص. 95)، فعندها عدل القائد الفرنسي عن خططه،

هكذا استطاع الأمير عبد القادر بحنكته، وبُعْدِ نظره، والتزامه الكبير بالمسؤولية وبأوامر الشريعة الإسلامية، أن يحافظ على تماسك الدولة العثمانية ، ويُبطل المخطط الأوربي لاقتطاع بلاد الشام منها، ويمنع جيوش فرنسا من دخولها. ويعطي مثلا رائعا للمسلم الحقيقي الملتزم بالتعاليم الإسلامية الحقة، النابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فقد عكس الأمير صورة بيضاء ناصعة عن حقيقة الدين الاسلامي بالأفعال لا بالأقوال.

عرف عن الأمير بأنه رجل علم ورأي وصاحب فكر ومنهج، كما عرف بأنه رجل حرب وحكم وسياسة، ومن هذه النفاذة الثقافية دلف إليه العلماء وطلاب المعرفة في منفاه بفرنسا، وكثرت محاوراته ومراسلاته، وقد احتكم إليه بعض الفرنسيين حول مسألة

الحضر والبادية وأيهما يفضل ؟ فعبر عن تفضيله للبادية بأدلة معقولة وأخرى مقبولة، ورأى أن أهل البادية أوفى عهدا، وأشجع نفسا، وأكثر احتمالًا وأطول أعمارا، وأشفى حسا وأصدق إلهاما. وقد واكبت قدرته البيانية المعهودة خبرة دبلوماسية جديدة اكتسبها في أثناء إقامته بالمنفى في فرنسا، ومع ذلك فقد ظل إعجابه بمظاهر المدنية محدودا، لأنه كان مركزا ومهتما بالأخلاق، وفي المرتبة الثانية التقدم العلمي والصناعي ووسائلهما، وقد سبق الأمير عبد القادر عصره إلى منازلة الغربيين حول محور من محاور الصراع بين الشرق والغرب، وهو الأخلاق (بركات، 1992م).

تمتع الأمير بسمعة كبيرة ملأت الأفاق، وزينتها الحكمة والأخلاق، ودانت لها الخصوم بشهادات تاريخية خالدة ، وما أوردته بعض المصادر خير دليل وتوثيق ،من لوم مجلس النواب الفرنسي للجنرال لامورسييه القائد الفرنسي الذي كان يقاتل الأمير في الجزائر، والذي قبل تسليم الأمير وفق شروط الأخير معتبرين ذلك خطأ كبير، فرد الجنرال على المجلس بالقول : "إن هذا اللوم الشديد وقع علي، بجنحي للسلم، في موضعٍ يجب فيه الحرب، بزعمكم !! وأنا أتحقق : أني لو ركبت الخطر، بالزحف على عبد القادر، ما رجعت إلا بخيمته وسجادته !! وإنه ليذهب إلى الصحراء، بحيث لا يمكنني أن أصل إليه، وهذا، أكيد عندي من أن يقع في يدي، لأن عبد القادر ذو صلابة في دينه، مشتهر : بالصدق والأمانة في وطنه، شديد التمسك بمبادئه. وهذا، الأمر الأوحد، والسبب الأعظم الداعي لاجتماع القلوب عليه. وإن مبدأه الفريد : وهو الذي شهره في جميع الجهات. ولاشك أن الظفر الذي حصل للرجل، الذي حاربناه، في وقائعه، هو ثمرة ما قررناه. ومن كان هذا شأنه وسيرته، فلا بد وأن يحدث خطراً عظيماً، إن تُرك في بلاده. وأظن أني ما سلكت، إلا جادة الصواب، ومع هذا فأرجعوه إلى محله، مع القوة التي كانت معه فقط. وأمسكوه عنوة!! وأنا، والحاكم العام ما قبلنا تسليمه إلا على شروطه، إلا أننا اخترنا : راحة فرنسا، وعساكرها التي أضنكها التعب، وكثرة المصارف من غير طائل نحصل عليه، من جهة الأمير، والقبض عليه. فسكتوا، وانفض المجلس" (خيربك، 2012م، ص. 432).

والشهادة الأخرى للعقيد شارل هنري تشرشل عندما قال "هناك شاب مسلم عربي كرس نفسه للعمل الديني في معزل عن الناس. ولكن أزمة حلت ببلاده كان فيها مصيرها، فناداه الواجب من معزله، ووضعه على رأس الأحداث. وانبعثت بذور عبقريته الكامنة دفعة واحدة في كامل النضج، وسطع نجمه في عظمة لا تقارن كداعية وزعيم للجهاد ضد اعتداء دولة مسيحية، وصد جيوش هذه الدولة مدة خمس عشرة سنة، بقوة أدنى بكثير

من قوتها، ولم يجندها إلاّ بحماسه النّاري الذي عرف كيف يستخدمه للحفاظ عليها، وقد أرغم عدوه مرتين أن يعترف له بامتيازات في بنود الصلح، وأن يحييه بألقاب السيادة، "وهذا وصف عالي الدقة ثاقب الرؤية في شخصية الأمير، ويزيد في القول عن حسن الإدارة والتنظيم عند الأمير"، وفي نفس الوقت كان يقيم ويكون إدارة داخلية كانت بسرعة تحل محل الفوضى المتناهية والاضطراب، وقد أصبحت مثالا للقانون والنظام والعدل. ووضع الأسس لدولة إسلامية. وأعطى في شخصه لرعاياه نموذجا للشجاعة والقوة والنشاط، والمثابرة والورع والحماسة" (تشرشل، 1971).

كان للأمير شخصية صوفية متحررة من قيود التقليد والتبعية، ومتطلعة إلى صفاء الشريعة الإسلامية وجوهرها النقي، فقد آمن بالتصوف الإسلامي طريًقا لتجديد الفهم الديني، وأسلوبا للحياة يمتزج فيها العمل بالنظر والنظرية بالتطبيق. ينطلق الأمير من فكرة أن الحقيقة ليست وقفاً على جماعة معينة أو فرد محدد، إنما هي ثمرة جهد البشر بمعزل عن اعتقادهم وانتمائهم الإثني (برقاوي، 1995م).

فالعالِم لا يهمُّه ما إذا كان الحق صادراً عمَّن حَسُن الاعتقادُ بهم أم لا، ذلك أن الحق يُعرَف بالدليل لا بالتقليد. وفي ضوء هذه الفكرة يقسم الجزائري الناس إلى قسمين : قسم عالِم مُسعِد لنفسه ومُسعِد لغيره–وهو الذي عرف الحقَّ بالدليل لا بالتقليد، وقسم مُهلِك لنفسه ومُهلِك لغيره–وهو الذي قلَّد آباءه وأجداده فيما يعتقدون ويستحسنون، وترك النظر بعقله، ودعا الناس لتقليده، ولذا فله حكمة مهمة "بهيمة تُقاد أفضل من مقلِّد ينقاد" (برقاوي، 1995م).

وفقا لهذه الأفكار والآراء يكون الأمير قد ترجم القيم والمبادئ الإسلامية إلى نظم سياسة واقعية، ورسخ منهج العقل والفعل، المنطق والعمل، التخطيط والتنفيذ، الأقوال والأفعال. وكانت أهدافه الأساسية توجيه الناس نحو الإيمان الحقيقي أولا، والسعي الى خدمة الإنسانية ثانيا، وهذه المضامين في أفكار وآراء الأمير مترسخة ومتناسقة ومتكاملة في كتاباته ومؤلفاته، ثم تجدها حقيقة ساطعة في سيرته وأفعاله، وفي ذلك دروس وعبر كبيرة لمن يعتبر ويتعظ، ورد على من يدعي أن فئة الأنبياء والأولياء قد باركتهم الإرادة الإلهية ولا يمكن الوصول الى مراتبهم وزهدهم وكراماتهم، فقد أثبت الأمير وقبله وبعده الكثير أن الإنسان قادر على ترويض نفسه وتحصين روحه من خلال الصدق والإيمان، عندها سيجد الله موفقا وراعيا وناصرا.

المبحث الثاني : قراءة جديدة لبعض رسائل الأمير عبد القادر

ترك لنا الأمير عبد القادر الجزائري تراثا نوعيا وراقيا من الرسائل الأدبية المعبرة والهادفة، والتي تحتوي على كم كبير ومميز من الأفكار والآراء الإسلامية الصحيحة والمسؤولة، والتي تمثل في مضمونها جوهر الإسلام وعين ما قصده رسول الإنسانية والمبعوث رحمة للعالمين النبي محمد صلى الله عليه واله.

استند الأمير في أفكاره وآرائه ومضامين عبادته إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، مؤمنا بأن الكتب السماوية مصدرها واحد وهو الله جل وعلا، وأن الرسل على اختلافهم هدفهم واحد، هو الدعوة الى الواحد الأحد، وفي ذلك قال : "وطريقة توحيدنا ماهي طريقة المتكلم، ولا الحكيم المعلم ولكن طريقة توحيد الكتب المنزلة، وسنة الرسل المرسلة، وهي التي كانت عليها بواطن الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين والسادات العارفين، وإن لم يصدقوا الجمهور والعموم، فعند الله تجتمع الخصوم" (بن محي الدين الجزائري، 2004م).

في محور البحث الثاني قراءة لبعض رسائل الأمير من خلال محتواها الإنساني وأفكارها وأهدافها وأبعادها السياسية والاجتماعية والدينية، وفق نظرته الاسلامية التي عناها في القول أعلاه، والتي أشار فيها أن أفكاره فريدة التفسير والمضمون، ولكنها مطابقة لعهد الراشدين والتابعين، متحديا المخالفين وإن كثر عددهم من الجمهور، ويكون الله الحاكم والقاضي والفيصل بين المختلفين يوم التلاق، وفي ذلك القول ثقة كبيرة، وإيمان عميق، ويقين صادق.

تم اختيار ثلاث رسائل مهمة تمثل كل واحدة الجهة المقصودة والهدف المنشود، لأن الواقع يؤكد العمق الكبير لتراث الأمير وسعة علاقاته وكثرة الرسائل التي بعثت إليه ورد عليها، فضلا عن التي كتبها مبتدئا.

الرسالة الأولى

بخط الأمير عبد القادر نشرت في صحيفة نيويورك تايمز بعد 9 أيام فقط من اندلاع المواجهات الطائفية بدمشق تموز 1860، يلخص بها ما حدث ويستعرض المجريات والأحداث وما قام به من حماية للمسيحيين وتأمينهم.

صدرت يوم 20 تموز 1860

(دمشق 27 ذي الحجة 1270 للهجرة ... 18 تموز 1860

أعزائي الأصدقاء الأفاضل

أتمنى لقائكم قريبا وأدعو الله أن يحفظكم، لقد تسلمت رسالتكم الثمينة والمؤرخة في 13 تموز المتعلقة بما حدث للمسيحيين بدمشق، وللإجابة، لقد علمتم أنه في يوم الأثنين 9 تموز حوالي الساعة الثانية ظهرا اندلعت الحرب نتيجة معاقبة بعض المسلمين لتعرضهم وإساءتهم للمسيحيين، هؤلاء المسلمين هرعوا في توتر شديد مسلحين للعظم إلى القسم المسيحي من المدينة، وبدأوا القتل والحرق والنهب في أن واحد، وساعدهم في ذلك الجنود الأتراك الذين ادعوا محاولة وقف الاضطرابات، و لكنهم كانوا يغذون ويشاركون المشاغبين في القتل والنهب والسلب.

بعض حكماء المسلمين قاموا بمحاولة إيقاف هذه الأفعال، ولكن الضباط الأتراك لم يرغبوا في إحلال السلام، ولكن على العكس أمروا جنودهم بملاحقة المسيحيين البائسين ودعموهم بأفواج من المجرمين من كل طائفة.

وبعد أن وصلت الأمور إلى هذا الحد الخطير لم أدخر وقتا ولا جهدا لحماية هؤلاء البؤساء، وذهبت مسلحا بقوة أتباعي الجزائريين، واستطعنا أن ننقذ الأرواح من رجال ونساء وأطفال، ونرجع بهم سالمين إلى بر الأمان.

هذه الحالة استمرت ليومي الاثنين والثلاثاء، حيث لم يتوقف المشاغبون عن القتل والحرق والتضحية بالمسيحيين، من دون إبداء أي عون من جهة الوالي لهؤلاء المسيحيين.

لقد بعثت للسيد لانوس القنصل الفرنسي بدمشق وفرنسيين آخرين بقوة لحمايتهم من غضب تلك العصابات.

وفي يوم الأربعاء، وفي ظل الادعاء بمقتل اثنين من المسلمين، وهذا ليس بالسبب عادت الحرب للاشتعال، ووالي دمشق عدمه ووجوده واحد، ومن جهتي فأنا أعبر عن شديد الأسف للمأساة التي حلت بالمسيحيين من حرق وتدمير لمناطقهم وبيوتهم.

لا نعرف تماما عدد القتلى، ولكنهم يقدرون بحوالي 3,300، وكل المسيحيين والأوربيين الذين احتموا بمنزلي هم سالمون, أمنت لهم جميع احتياجاتهم، وأدعو الله أن يحفظ وينجي المسيحيين البؤساء من هؤلاء الغلاة المتعصبين. عبد القادر بن محي الدين) (العطار، 2009م).

عندما نقرأ هذه الرسالة بتمعن نجد فيها مضامين وأفكار مهمة ذات بعد إنساني وفكري وأخلاقي، ومن أجل التوضيح سوف يتم قراءة فقراتها مجزأة.

نبدأ من بداية الفقرة الأولى، وفيه أن البدء بالكلام عند الأمير عند مخاطبة الأديان الأخرى لا يبدأ البداية الإسلامية المعتادة من حمد الله والثناء عليه، والصلاة والسلام على رسوله، وهذا دليل على أن للأمير بعدا فكريا عميقا، إذ يريد من ذلك التقرب إلى الآخر بطريقته وبالأسلوب الذي يرغب فيه الآخر، لا بالأسلوب القسري الاستعلائي النابع من فكرة أنا الأصح ويجب أن أقنعك بما أؤمن، وليس بأسلوب الحوار والأخذ والرد والمناقشة.

إنّ الثقافة الغربية خرجت من إطار المقدس والمؤله والانغلاق منذ عصر النهضة والتنوير منذ مئات السنين، بل إنكل شيء عندهم مشكوك فيه حتى يثبته العقل والمنطق، ولا تثيرهم الغيبيات والعواطف التي يعدونها من الخيال، والخطاب الديني بالأسلوب الإسلامي يثير عندهم نظرة المتخلف والمتأخر والمنغلق، ولا يقرأون الوجه الذي يريده الكاتب الإسلامي، ولذلك فإن الأمير قرأ أفكارهم وفهم دوافعهم وطريقتهم، وعمل وفق الآية القرآنية (وجادلهم بالتي هي أحسن)، والإنسان الغربي لايناقش ولايجادل إلاّ حين تحاوره بطريقته هو، القائمة على النقاش العقلي والمنطقي وفق المحسوس والملموس والواقع.

الأمر الآخر في هذا الجزء، إن كلماته كانت متساوية الوصف لكل جهة من جهات النزاع، وهم ثلاثة المسلمون والمسيحيون والأتراك، ولكل جعل له دور في الأحداث، ولكنه استدرك في آخر الجزء ليصف الأفراد الذين شاركوا بهذه الأعمال بأنهم مشاغبين، في دلالة على أن ذلك ليس من الإسلام في شيء. ثم اتهم الأتراك بأنهم أسهموا وشاركوا في الأحداث، وفي ذلك تشخيص دقيق، وشجاعة كبيرة، ورغبة في إيجاد الحلول المناسبة.

الجزء الثاني يتحول فيه الأمير إلى حكمة بعض رجال المسلمين الذين بذلوا جهودا كبيرة في الدفاع عن الإنسان أولا، وعن البعد الأخلاقي في الدين الإسلامي ثانيا، لأنهم بذلك أثبتوا أن الدين ليس بالنصوص والأقوال والشعارات، وإنما الدين بالأفعال والتصرفات. والإسلام لا يحرض على العنف والانتقام والثأر، والتشفي والتمثيل والاستهزاء، بقدر دعوته إلى السلام والأمان، والرحمة والمغفرة، والتسامح والتعايش، وحب الناس وحب الخير وعمله.

في الجزء الثالث أوضح الأمير لأصدقائه ما قام به من دور في تلك الأحداث وكيف استطاع حماية عدد كبير من المسيحيين في داره مع بعض رجاله ، قال تعالى ((وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ))

التوبة (6)، وهذه الآية في الكافر الذي يطلب الإجارة، فكيف بأهل الكتاب الذين أوصى الله بهم خيرا، إذ قال تعالى (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) العنكبوت (46)، وواضح جدا أن الله سبحانه وتعالى دعا المسلمين إلى الحسنى في التعامل مع أهل الكتاب، لأنّ الإله واحد عند الفريقين، والجميع مسلّمٌ وجهه لله عز وجل، وفي ظل هذه المبادئ تحرك الأمير وحمى المسيحيين من بطش المشاغبين الذين شوهوا صورة الإسلام، وعكسوا جهلهم ورغبتهم في السلب والنهب على الدين الإسلامي.

إن وصف الأمير للجماهير الثائرة بالمشاغبين مرة، وغلاة المتعصبين مرة ثانية، يعطينا دليلا واضحا على عمق الروح الإنسانية التي يتمتع بها، ومدى غضبه وثورته عليهم، لأن التعصب والتطرف ليس من الإسلام في شيء، بل إنّ الرسول محمد عليه الصلاة والسلام جاء لمحاربة التطرف والغلو والعادات الجاهلية، ولذلك نجده يصف المسيحيين بالبؤساء ويدعو لهم بالخلاص من هذه الشدة.

الرسالة الثانية : رسالة من قائد الثورة في الداغستان والشيشان الشيخ (محمد شامل الداغستاني) إلى الأمير عبد القادر ونصّها :

(... إلى من اشتهر بين الخواص والعوام ، وامتاز بالمحاسن الكثيرة عن جملة الأنام، الذي أطفأ نار الفتنة قبل الهيجان، واستأصل شجرة العدوان، رأسها كأنه رأس شيطان، المحبّ المخلص السيد عبد القادر المنصف ؛ السلام عليكم وبعد : فقد قرع سمعي ما تمجّه الأسماع، وتنفر عنه الطباع، من أنه وقع هناك بين المسلمين والمُعاهَدِين ما لا ينبغي وقوعه من أهل الإسلام، وربما كان يُفضي إلى امتداد العناد بين العباد في تلك البلاد، ولذلك عند سماعه اقشعرّ منه جلدي، وعبست طلاقة وجهي، وقلتُ (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس)، وقد تعجبتُ كيف عميَ من أراد الخوض في تلك الفتنة من الولاة عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا من ظلم مُعَاهَدًا أو انتقصه حقّه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة)، وهو حديث حسن، (ثمّ لما سمعتُ أنّك خفضت جناح الرحمة والشفقة لهم، وضربت على يد من تعدّى حدود الله تعالى، وأخذت قصب السبق في مضمار الثناء واستحقيت لذلك، رضيتُ عنك والله تعالى يرضيك يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، لأنك أحييت ما قال الرسول العظيم الذي أرسله الله رحمة للعالمين، ووضعتَ من يتجرّأ على سنّته بالمخالفة، نعوذ بالله

من تجاوز حدود الله، ولكوني ممتلأً بالرضى عنك كتبتُ إليك إعلاماً بذلك. والسلام. حرر سنة 1277هـ شامل الغريب).

فأجابه الأمير برسالة جاء فيها : (الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى سائر إخوانه من النّبيين والمرسلين، إنه من الفقير إلى مولاه الغني عبد القادر بن محيي الدين الحسني، إلى الأخ في الله تعالى والمُحب من أجله الإمام شامل، كان الله لنا ولكم في المقام والرحيل، وسلام الله عليكم ورحمته وبعد، فإنه وصلني الأعز كتابكم وسرّني الألذ خطابكم، والذي بلغكم عنّا ورضيتم به منّا من حماية أهل الذمة والعهد، والذَّب عن أنفسهم وأعراضهم بقدر الطاقة والجهد، هو كما في كريم علمكم مقتضى أوامر الشريعة السّنية، والمروءة الإنسانية ، فإنّ شريعتنا متممة لمكارم الأخلاق، فهي مشتملة على جميع المحامد الموجبة لائتلاف اشتمال الأطواق على الأعناق. والبغيُ في كل الملل مذموم، ومرتعه وخيم، ومرتكبه ملوم ولكن :

يُقْضَى عَلَى المَرْءِ فِي أَيَّامِ مِحْنَتِهِ حَتَّى يَرَى حَسَناً مَا لَيْسَ بِالحَسَنِ

فإنّا لله وإنا إليه راجعون على فقد أهل الدِّين، وقلَّة الناصر للحق والمعين، حتى صار يظنُّ من لا علم له أنّ أصل دين الإسلام الغلظة والقسوة والبَلادة والجفوة، فصبرٌ جميل والله المستعان.

حرر في أول جمادى الأولى 1277هـ) (الجزائري الحسني، 1903م).

يلاحظ في رسالة الشيخ محمد شامل بعدها الإنساني، ومطابقة آرائه مع آراء الأمير عبد القادر مدعومة بآيات قرآنية وأحاديث نبوية ، وفيها تقريع وشجب لأفعال المشاغبين الذين وصفهم بأنهم لا يمثلون الإسلام، ثم أعطت الرسالة صورة واضحة عن مدى انتشار أخبار الأمير في أنحاء المعمورة، وعمق التأثير الذي أحدثه موقف الأمير من أحداث الفتنة لتموز 1860 في دمشق، واصفا الأمير بأنه أحيا سنن النبي محمد صلى الله عليه وآله الذي أرسل رحمة للعالمين. وكان رد الأمير في غاية الدقة والجمال، مبتدئا بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله وهو الأسلوب المعتاد في كتابة الرسائل والكتب الإسلامية، لأنّ المخاطب مسلم، ثم يتواضع أمام الكلمات الفخمة والتعظيمية التي خوطب بها في تلك الحقبة، لذلك كتب من (الفقير الى مولاه الغني)، في إشارة إلى عمق إيمانه بالله سبحانه وتعالى، وتصغير أفعاله

إلى الأدنى لكي لا يصاب بالعجب والفخر، والتعالي والتكبر، وهي عادة من صفات العلماء الكبار والزهاد الأتقياء.

وصف الأمير أفعاله بأنها من أساسيات الدين والشريعة التي بعثت متممة لمكارم الأخلاق، بل إن الإسلام يشتمل على المحامد كلها، وعليه يجب أن تنعكس على السلوك، وأن البغي مهما كان فاعله مذموم في كل الأديان والملل، ونتائجه وخيمة وكبيرة على الدين وعلى الأوطان، ولذلك فقد أكّد الأمير على محاسبة مرتكبي البغي، لأنه سعي في خراب وتدمير المبادئ الإسلامية، إذ أوجب إلقاء اللوم على المشاغبين حتى لا يعطي شرعية لمثل تلك التصرفات.

في نهاية الرسالة شكا الأمير للداغستاني من قلة الناصر والمعين لأهل الحق، في إشارة إلى أن أغلب رجال الدين في عصره لا ينصرون الحق بقدر نصرتهم للجهل وللقراءات السطحية للدين، حتى يصل في وصفه إلى أن أهل الدين الحقيقيين فقدوا، ولم نعد نجدهم، وفي ذلك يتضح مدى الألم والمعاناة التي عاشها الأمير مع هذه المجموعة من الناس.

الجزء الأخير من الرسالة تشخص بدقة، أن قلة الخبرة عند علماء الدين، وانتشار التصرفات والأفعال للجهلاء من الناس مدعومة بفتاوى وآراء دينية، عكست صورة مشوهه عن الدين الإسلامي، وأصبح غير المسلم مقتنعا أن الأصل في الدين الإسلامي هي الغلظة والقسوة، والجفاء والبلادة، وهي صفات أبعد ما تكون عن الذي أراده رسول الإنسانية، ونبي الرحمة محمد الطاهر الأمين صلى الله عليه وآله.

الرسالة الثالثة

بلغتْ أخبارُ واقعة دمشق الهائلة حَضْرَةَ الخليفة العثماني عبد المجيد خان، وما صنعه الأمير في سبيل طاعة الخليفة وأداء واجب خدمته، أظهر الخليفة رضاه العالي بفعله وأنعم عليه بالنيشان المجيدي العالي الشان من الرتبة الأولى، وأرفق معه فَرَمَانًا وحملهما إلى الأمير الصدرُ الأعظم علي باشا، وإليكم نصّ الفرمان :

(قد أحاط علمي الشريف السلطاني بحال الحميّة الدينيّة الثابتة في أصل فطرة الأمير عبد القادر الجزائري، زيدَ فضلُه، وخلوصه الأكيد الوطيد لطرف دولتي العليّة، وقد اضطره كل منهما لاستعمال الهمّة والغيرة الكليّة الفائدة في الخدمة المرغوبة وهي تخليص

عدد كثير من تبعة دولتي العليّة الواقعين بأيدي الأشقياء الظالمين عند وَقع الفتنة والعناد مؤخرًا في الشام، من بعض ذوي التوحش الجاهلين بالوظائف العليّة الإسلاميّة، والأحكام الجليلة الشرعيّة، وحيث أنّ حركته الحسنة قد استوجبت لدى سلطنتي زيادة المحفوظيّة، ووقعت موقع الاستحسان، ولأجل حسن توجهاتي السلطانية الحاصلة في حقّه، والمكافأة العلنيّة على خدمته الخيرية الواقعة، أحسنتُ إليه بنيشاني المجيدي الهمايوني من الرتبة الأولى، وأصدرتُ له فرماني السلطاني المعلوم المؤْذن بالمكارم الملوكانية في أول صفر الخير سنة سبع وسبعين ومئتين وألف).

فسُرَّ الأمير بهذا الإنعام السلطاني، ورفع إلى حضرة الخليفة كتابًا يشكره فيه ويلخص له ما حدث، جاء فيه :

(أحمدك اللّهم حمدا معترفا بالتقصير عن شكر ما أوليت من النّعم. وأصلي وأسلم على نبيك سيدنا محمد أفضل العرب والعجم، وعلى آله وأصحابه الذين شيدوا منار الإسلام. ودعائم الدين بالعدل والحسام، ثم أرفع أيدي الضراعة والابتهال. إلى ربنا القدير المتعال، أن يديم النصر والتأييد لحضرة مولانا الخليفة الأعظم، والملك الأعدل الأفخم، سلطان سلاطين الأمم، ظل الله الممدود في العالم، ناشر لواء العدل على البرية، حافظ أحكام الشريعة بالهمة العلية القوية، أمير المؤمنين أيد الله تعالى دولته العلية إلى يوم الدين، ثم أتوجه إليه سبحانه بقلبي وتضرعي أن يوفق كافة وكلائه ووزرائه وعماله في جميع الأقطار، إلى تحصيل مرضاته بالتزام صفتي الصدق والاستقامة في السر والإجهار. وبعد فإن العبد لم يزل قائما بوظائف الدعوات الخيرية للدولة العلية في كل بكرة وعشية، متحدثا بنعم الله الظاهرة والباطنة، شاكرا آلاء أمير المؤمنين المترادفة في كل دقيقة وثانية، مقرا بالعجز عن إيفاء بعض ما وجب عليه وعلى كل موحد في هذا الباب، سائلا من ذي الجلال العصمة عن الزيغ والارتياب، ثمّ لمّا وقعت حادثة الشام وانتُهكت محارم الله بلا احتشام ، وتعيّنَ على كل فردٍ من العباد بذل المجهود في دفع ذلك الفساد، قمتُ بأداء ما قدرت عليه من هذه الفريضة العينية ؛ والنيّةُ الصحيحة في ذلك تحصيلُ رضاء الله تعالى، ثمّ طاعةُ الدولة العليّة، ولما صدرت الإرادة السنية بسفر صاحب الآراء الصائبة الألمعية حضرة الوزير فؤاد باشا ناظر الخارجية، قدم إلى دمشق وهي تفور كالمرجل، وأرجاؤها من تميز نار الفساد تكاد أن تزلزل، فرتب العساكر المظفرة في المواقع اللازمة على مقتضى الحال، وبادر بتمهيد قواعد الحكمة بلا إمهال، وفي أقرب وقت وأقل مدة، ساعدته القدرة الإلهية والتوجه السلطاني أمده فأبرز ثمرة تدابيره من القوة إلى الفعل، وأذهب من المدينة بنور الهدى ظلام

الجهل، وأظهر عدل أمير المؤمنين لكل باد وحاضر، حتى أعلنت بذلك خطباء الإسلام على المنابر، ورضي به كافة الملل والنحل من القاص والدان، وطهر ذيل الشريعة المحمدية من لون أهل البغي والعدوان، فجزاه الله عن أمير المؤمنين والمسلمين خيرا، هذا وإنّ سيدنا ومولانا أيده الله، ما برحت نعمة تتجدد على تجدد الآناء والأذهان، ولم يكتف بذلك دام علاه حتى طوقني بعلامة الافتخار، وهي نعمة شكرها ليس في حيز الإمكان، ورفع قدر مملوكه بما لست أهلا من العنايات والتلطيف، مع أنه يكفيني فخر النسبة بالعبودية إلى مقامه الشريف).

ولـــم أر أعظـــم مـــن نعمـــة منحـــت ولـــم تـــك لـــي فـــي حســـاب
سأشـــكرها شـــكر وقـــت الســـرور واذكرهـــا ذكـــر وقـــت الشبـــاب
أيـــا ســـابقا بالـــذي لـــم يجـــل بفكـــري ثـــوابا ونعـــم الثـــواب
كـــذا فلتكـــن نعـــم الاكـرميـــن تفـــاجيء بـــلا منـــة أو طـــلاب

وبناء على ذلك أبتهل إلى الله تعالى بكل دعاء مستجاب أن يجعل كافة آراء دولته العلية مقارنة للسداد والصواب، ويديم بقاء ذاته الكريمة الملوكية بالتأييد مشمولا بكمال

الصحة والعافية إلى أمد مديد، بجاه سيد الوجود عليه الصلاة والسلام، والحمد لله دعاء المتقين في البدء والختام)) (الجزائري الحسني، 1903م، صص. 96-98).

أوائل ربيع الأول 1277هـ

عندما نقرأ رسالة السلطان عبد المجيد نجده قد عبر عن عظيم شكره، ليس لمواقف الأمير من المسيحيين، أو لأنه مطابق للدين الإسلامي، على الرغم من وجود تلك الإشارة، ولكن السلطان أكّد على أهمية دور الأمير في دفع الضرر عن دولته، والمقصود بالضرر هنا، محاولة الفرنسيين التدخل عسكريا، ووقوف الأمير حائلا دون ذلك. ولعل الأخبار وصلت إلى السلطان بأن الأمور ساءت إلى درجة التدخل العسكري الفرنسي، ولم تكن الدولة العثمانية في هذا الوقت بالقادرة على صد هذا الهجوم، لأنها لازالت تعاني من آثار حرب

القرم[6] مع روسيا القيصرية، ولولا مساندة البريطانيين والفرنسيين لها في تلك الحرب لسقطت السلطنة برمتها.

رد الأمير كان مركزا وشاملا لكل الأحداث، فبعد البداية الإسلامية المعتادة، نجد دعاء الأمير للخليفة بالسداد والصواب ودوام نعمة الخلافة الإسلامية، واصفا إياه بأمير المؤمنين، وهي دعوة إلى الخليفة وتذكير بواجباته تجاه رعيته المؤمنين، وضرورة الحكم بالشريعة الصحيحة النابعة من روح الرحمة والسلام، القائمة على العدل والإنصاف والرأفة بالناس.

الأبرز في الرسالة هي طريقة النصح والإرشاد غير المباشرة التي لا تترك الأثر في نفس المتلقي بأن المقابل ينصح كونه الأعلم والأفهم، إذ طالب الخليفة عن طريق غير مباشر توعية عماله ووكلائه في جميع أرجاء السلطنة بأن يحكموا وفق الشريعة السمحاء، وأن يتحلوا بصفتي الصدق والاستقامة لأنهما طريق الصلاح والرضا الإلهي، وأن لا يكون عمل الخير ملازما للرياء، كأن يكون في العلن فقط، وإنما يجب أن تكون الأعمال متطابقة في السر والإجهار.

انتقل الأمير إلى وصف أحداث الشام بطريقة مختصرة ومركزة منذ بدايتها ، منتقدا مواقف الكثير من رجال الشام الذين كانوا إما موافقين ومؤيدين لتلك الأحداث، أو محايديين لايتدخلون، ماعدا القلة القليلة منهم، إذ ذكرهم بتكليفهم وواجباتهم تجاه بلدهم وإخوانهم، إذ يتعين على كل فرد بذل كل ما في وسعه لدفع الضرر والأذى عنه وعن بلدته ووطنه، وأهله وجيرانه، لأن ذلك من صلب التكليف الشرعي ومن أساسيات الخلق الإنساني.

امتدح الأمير قرارات السلطنة بإرسال الوزير فؤاد باشا الذي استطاع في وقت قصيرإعادة الهدوء والأمن إلى دمشق، وقد امتدحه الأمير للقدرات التي تميز بها من حسن التدبير وسرعة الإنجاز.

---

[6] حرب القرم : هي حرب قامت بين الإمبراطورية الروسية والدولة العثمانية في 4 أكتوبر 1853، واستمرت حتى 1856م. ودخلت مصر وتونس وبريطانيا وفرنسا الحرب إلى جانب الدولة العثمانية في 1854م التي كان قد أصابها الضعف، ثم لحقتها مملكة سردينيا التي أصبحت فيما بعد (1861م) مملكة إيطاليا. وأسبابها الأطماع الإقليمية لروسيا على حساب الدولة العثمانية وخاصة في شبه جزيرة القرم التي كانت مسرح المعارك والمواجهات، وانتهت حرب القرم في 30 مارس 1856م بتوقيع اتفاقية باريس وهزيمة الروس. للمزيد ينظر : عبد الرؤوف سنو، (1985م). العلاقات الروسية العثمانية (1687-1878). حرب القرم ممهداتها وتطوراتها ونتائجها (1853-1856). **مجلة تاريخ العرب والعالم**،(77-78)، بيروت، صص. 25-44.

ثم ينتقل في الجزء الأخير الى مقابلة المعروف بالمعروف والشكر والامتنان بكلمات رقيقة تدل على عمق تبحره اللغوي، وقدراته العلمية الكبيرة ، والشكر الممزوج بالنصيحة والدعاء المشروط بتوافقه مع السداد والصواب.

منحته الدول الأوربية الأوسمة الفخرية وكلها من المرتبة الأولى، فنال وسام الجوقة الفرنسي، ووسام صليب النسر الأبيض الروسي، ووسام صليب النسر الأسود البروسي، ووسام المخلص اليوناني، وأهدت إليه ملكة بريطانيا فكتوريا بندقية مرصعة بالذهب، وقد خاطبها قائلا : "إنني لم أفعل إلاّ ما توجبه علي فرائض الدين ولوازم الإنسانية" (الأمير عبدالقادر بن محيي الدين الجزائري، 2004م، ص. 16).

كان الأمير حليما زاهدا ورعا، كثير التهجد والخلوات، وكثير الصدقات، يبر العلماء والصالحين والفقراء برواتب شهرية، وينتصب لقضاء حوائج العباد، عاملا بتقوى الله في السر والعلن يصوم شهر رمضان على الكعك والزبيب، ويعتزل خلاله الناس، ومن شدة حب الناس له في دمشق والجزائر والبلاد الأوربية، كانوا يطلبون صورته فكتب ردا عليهم :

لـئنْ كَـانَ هـذا الرسـمُ يعطيـكَ ظـاهري ... فلـيس يُريـكَ الرسـمُ صـورتَنا العظْمَـى

فـثَمَّ، وراء الرسْـمِ، شـخصٌ محجَّـبٌ لـه ... هِمّـــة تعلُـــو بأخمصِـــهَا النجْمَـــا

ومـا المـرءُ بالوجـهِ الصـبيحِ افتخـارُه ... ولكنـــهُ بالعقـــلِ والخُلُـــقِ الأســـمى

وإن جُمِعَـت للمـرء هـذي وهـذهِ فـذاكَ ... الـــذي لا يُبتغـــى بعـــدَه نُعمـــى

(الامير عبد القادر الجزائري، 2004، ص. 24)

خاتمة

استقرار الأمير عبد القادر الجزائري في دمشق، بعدما عاش حياته في جهاد وكفاح، جعله يعيش حياة التصوف، من قراءة القرآن والصلاة والتهجد والصيام والعبادات، فالإسلام يجري في عروقه ودمه، ولذلك تشرب وتشبع بالمضامين الإنسانية الحقة التي دعا إليها الإسلام الحقيقي، وأقول الحقة والحقيقي، لأن الأمير كان نقيا تقيا صادقا أمينا، وهذه الصفات أدخلت عناصر اليقين والإيمان الحقيقي إلى قلبه، فحاباه الله بكرامات وجاه عظيم قلة من الناس من حظي بها، ومع ذلك لشدة تواضعه وصغر الدنيا في عينه لم يأبه لكل المغريات، وحافظ على مبادئه وقيمه إلى آخر رمق من حياته، والتي قدم من خلالها ما يستطيعه لأمته ودينه.

من أبرز مناقب الأمير في تلك الحقبة أنه جعل من بيته مركزا للشورى، يستقبل ويلتقي بكل زائر، وصار يأتيه أعلام العالم الإسلامي ورجالاته، يستشيرونه في مختلف القضايا والأمور، بما يمس واقع الأمة، بحكم أنه عالم جليل من جهة، وقائد عسكري من جهة أخرى، فأصبح الموجه لحركات الإصلاح في أرض الله الواسعة.

إنّ مواقفه البارزة في الفتنة التي حصلت عام ١٨٦٠ في بيروت ودمشق بين الدروز والمسلمين من جهة، والموارنة والمسيحيين من جهة أخرى، جعلت العالم الغربي يعيد النظر في الكثير من حساباته تجاه حقيقة الدين الإسلامي، لا بل إن علماء المسلمين أيضا، استقوا الدروس والعبر وأعادوا النظر في الكثير من المفاهيم التي أخطأوا تفسيرها وانحرف مسارها عن معانيها المقصودة.

كان موقف الأمير إنسانيا خالصا وروحانيا نقيا، وما قصد به إلا إرضاء ربه رجاء لمغفرته وإذعانا لطاعته، فحماية المدينة وحماية الناس من الفتنة، وقضاء الليل ساهراً وسلاحه في يده، يقود رجاله لنصرة المظلومين أو تطبيب الجرحى، أو رعاية الثكلى من النساء، مواقف لا تتكرر كثيرا ،والتاريخ خلدها بأبهى وأجمل الصور، والأجمل من ذلك صدورها من رجل دين متصوف أقرب صفاته إلى البداوة من التمدن، ليعطي رسالة على قدر كبير من الأهمية مفادها أن الدين الإسلامي دين الأخلاق والقيم والمباديء والعمل الجاد، والسماحة والرأفة والتعايش، وليس دين القسوة والعنف والجهاد المزيف والقتل، والتمثيل والسلب والنهب، فتلك المواقف البطولية، كشفت عن نصاعة الدين وأزالت الصدأ عن واجهاته. إنّما الرجال بالأفعال لا بالأقوال، وكثيرا ما ترفع الشعارات وتتعالى الأصوات بالمبادي والقيم والنزاهة والشرف، والشجاعة والإقدام وحسن السلوك والدعوة إلى الزهد، لاسيما من بعض الخطباء والرجال المحسوبين على الدين، ولكنهم عند التطبيق العملي لا تجد منهم أحدا، وكأن كل تلك الكلمات التي قالوها كانت من الخيال وليست من الدين، وهذه من عجائب الأمور وغرائبها، فتجد نماذج هؤلاء منذ زمن الأمير عبد القادر في القرن التاسع عشر، وإلى حاضرنا اليوم وقد زادوا وانتشروا في أغلب بقاع العالم ، في حين نفتقد اليوم نموذج صنف الأمير، الذي يتحلى بالشجاعة والإقدام، وحسن التدبير والالتزام، خلقا أسمى وعلما جما، ينشر لنا ديننا الحنيف بصورة بهية، وعقلية جلية، ومواقف فعلية، مضمونها الإنسان، ومحتواها الإيمان، ومصدرها القرآن.

بيبليوغرافيا

اباظة، نزار (1994م). **الأمير عبد القادر الجزائري – العالم المجاهد**. (ط. 1). بيروت –لبنان: دار الفكر المعاصر، صص. 16-17.

إتيين، برونو (1997). **الأمير عبد القادر الجزائري**، (ط. 1). (خوري ميشيل، ت.). دار عطية للنشر. صص. 312-313.

أحمد عبد الرحيم، مصطفى (1982). **في أصول التاريخ العثماني**. (ط. 1). بيروت : دار الشروق.

الأمير عبدالقادر بن محيي الدين الجزائري (2004م). **المواقف الروحية والفيوضات السبوحية**. اعتنى به : عاصم ابراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي، بيروت : دار الكتب العلمية، ص. 6.

بازيلي، قسطنطين (1988). **سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي**. (يسر جابر، ت. مراجعة : منذر جابر)، بيروت-لبنان : دار الحداثة، ص. 406.

برقاوي، أحمد (1995م). ذكرى العاقل وتنبيه الغافل للأمير عبد القادر الجزائري. **مجلة النهج**، (38)، السنة 11، شتاء الموقع الالكتروني :

بركات، محمد مراد (1992م). **الأمير عبد القادر الجزائري المجاهد الصوفي**. باتنة – الجزائر : دار النشر الالكتروني، ص. 31.

تشرشل، شارل هنري (1971). **حياة الأمير عبد القادر**. (ابو القاسم سعد الله، ت.). تونس : الدار التونسية للنشر، ص. 298.

حتي، فيليب (1972م). **تأريخ لبنان**. (ط. 2). بيروت – لبنان : دار الثقافة، ص. 530.

خليفة، عصام (1985). **أبحاث من تاريخ لبنان المعاصر**. (ط. 1). بيروت : دار الجيل.

خيربك، بشرى (2012م، كانون الثاني-حزيران). دراسة لبعض مغالطات المصادر التاريخية وتناقضاتها "تحفة الزائر ومآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر" أنموذجًا للدراسة. **مجلة دراسات تاريخية**، (117-118). جامعة دمشق، ص. 432.

سلمان، نوار عبد العزيز (1978م). **الأزمة اللبنانية**. القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص. 105.

صليبي، كمال سلمان (1972م). **تأريخ لبنان الحديث**. (ط. 3). بيروت- لبنان : دار النهار للنشر، ص. 143.

طربين، أحمد (1968). **لبنان منذ عهد المتصرفية إلى بداية عهد الانتداب**. القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية. صص. 69، 91.

العطار، مهيب (2009م). **خاص وارف حقوق الإنسان**. الموقع الالكتروني : http://www.alwaref.org/arabic/2009-02-26-01-53-47/218-2010-04-13-

محمد باش ابن الأمير عبد القادر الجزائري الحسني (1903م). **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، الاسكندرية- مصر، ص. (95، 114-115).

مشاقة، مخائيل (1908م). **مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان**. (ملحم خليل عبدو.، واندراوس وحنا شخاشيري، مح.). مصر، صص. 172-174-175.
http://www.maaber.org/eleventh_issue/books4.htm